النفس والشعور بالحرمان

من طبائع النفس الإنسانية أنها تطلب الوفر والعطاء فيما تملكه بين يديها وفيما تتمناه ، وأنها تنفر من العجز والقصور عن بلوغ غاية مرتجاة أو أرب منشود . وهى تنكر الشعور بالمنع والحرمان ، لأنها تطلب الحرية فى الوفر والسعة وغنى النفس عن الحاجة وترفعها عن الضرورات .

لأن النفس حين تطلب الحرية تأنف أن تستكين للضرورة وتتأبى على الموانع والقيود ؛ فهى — من ثم — تطلب الوفر والسعة و " الامتلاء " فى الأشواق والآمال ، والانطلاق فى الشعور والتعبير ، لتقترب من أجواء الحرية وتدنو من آفاق الجمال .

وكلما كانت النفس أقرب إلى الحرية فى الحياة ، كانت أخلد إلى السعادة والرضا واليقين ؛ لأنها فى حريتها تصل — عن طريقها — إلى غاية مرتقى المثل والأشواق ، فلا يحول بينها وبين رغباتها قيد ، ولا يوصد دونها باب أو حجاب . فإن هى بلغت الغاية مما تريد ؛ فذلك دليل على فرط حيويتها وتأصل عنصر الحرية فيها . وإلا فهى ما تزال فى طور النشوء وما يزال بينها وبين الحرية مراحل طوال .

لذلك تنفر النفوس بالغريزة الأصيلة من الحرمان ، وتأنف أن تصير إلى الذلة والاستكانة ، لأن الذلة والاستكانة إن هى إلا قصور عن الحرية وعجز عن إدراك شأوها فى محيط الرغائب والميول ، أو هى استسلام لموانع الحاجة وقيود الضرورة .

وهى تدارى ذلك القصور جهد طاقتها ، فيأبى المرء منا أن يستكين أو أن يعترف بعجزه وضعفه وقصوره عن بلوغ المأرب الصغير أو الكبير ، ويأبى إلا أن يصور عجزه فى صورة تشعر بقلة الاكتراث وعدم المبالاة ، وتهوين المطلب القاصر عن بلوغه كل هوان ، وما هو بالمهين ولا المزهود فيه !

كذلك ينكر الآلام والأحزان ويصطنع الانطلاق والمرح والاغترار ، إيهاما للناس ولنفسه قبل الناس ، أنه قادر غير عاجز وأنه مستطيع أن يواجه الحياة مواجهة القوة والمعارضة لا مواجهة الضعف والتسليم . وذلك هو الترفع عن الحرمان وعن الشعور به ، وهو فى ذاته قرب من الحرية التى هى طبيعة الحى وسمة الحياة .

ومن أجل ذلك يجد الناس جميعا لذة ومتاعا عظيمين فى الشعور بالعظمة أو بالتعظيم لأنهم يرضون بذلك طبيعة هى أوشج الطبائع بالنفس الإنسانية وليست هذه الطبيعة بالدخيلة أو الزائفة الموهومة كما قد يظن فى النظرة الأولى ؛ وليست ذات صلة بالكبرياء والغرور الذى يستعلن فى بعض النفوس المريضة التى يركبها الوهم ويملأها الادعاء . لأن قوة الشخصية التى تبدو فى الشعور بالعظمة غير ذلك الضعف الذى يبدو فى صورة الغرور والازدهاء ، وهو ضعف فى حقيقته يلجأ إلى التصنع الظاهر ويروغ خلف قناع الكبرياء ؛ وذلك — لا شك — صغار فى النفس ومرض فى الشخصية . والرجل الفحل لا يتكلف إظهار خولته ولا يصطنع المظاهر الجوفاء . وإنما يتكلف ذلك من يشعر بهوان نفسه وضعة قدره بين الناس وبعد ما بينه وبين العظمة والفحولة .

* * *

ومما لا مراء فيه أن النفس فى عالمها الباطن تصطدم بالحياة فى شتى مذاهبها وغاياتها ، فيندر أن توجد النفس التى تنظر إلى الحياة دائما نظرة الرضى والتسليم ، لأن مدار النفس الذى تدور عليه نزعاتها ورغباتها وما تنطوى عليه من حس وتفكير ؛ هو غير مدار الحياة فى منهجها الكلى الذى يجمع بين الخير والشر أو هو غير مدار الطبيعة فى مقصدها الأكبر الشامل لخصائص الأحياء والأشياء . ومن هنا كان الشعور بالنقص ، واستحالة التوفيق بين مقصد الطبيعة ومقصد الإنسان ، ومن هنا أيضا كان التشاؤم المنقبض والتجهم الحارد ، ومعارضة الحياة كلها وإنكار الكون كله ! وملابسة أنماط الشك ومخالطة ألوان السآمة والتخدير .

تبدو هذه الظاهرة ، أو هذه الطبيعة ، أكثر ما تبدو ، فى عهود الشباب وباكورة الأيام ؛ لأن الشباب عهد النضوج الروحى ، وهو الزمن الذى تبلو فيه الحياة المرء بالتجارب والأحداث وتحبوه بذخيرتها من الخير والشر على السواء .

ثم تختفى بعد طور الشباب . لأن الشيخوخة أكثر ما تكون قانعة راضية بالواقع لا تتطلع ولا تثور ، ولا يثيرها فى الحياة دافع إلى الثورة والطموح ، أو الترفع عن الموانع والقيود .

فالشباب يتنكر للحياة ويترفع عن ضروراتها وقوانينها ، لأنه يأنف فى الواقع أن يقر بالعجز ويعترف بالهزيمة ويستكين للاضطرار . وهو يترفع عن الحياة لأنه يترفع عن الفاقة والعوز والحرمان . وكيف يقر الشباب ذلك وهو لا يعرف طبيعة له غير الوفر والثروة والإقبال . وهل الشباب إلا فيض الحياة ولو تنكر للحياة ؟ !

وإنما كانت ظاهرة التشاؤم التى تكثر بين الشباب فى هـذا العهد من عهود العمر ؛ قرينة التوفز والتوثب ، والتهيؤ لقبول ذخائر الحيوية الدافقة ، ونتيجة المدى الشاسع بين الواقع المحدود ، وبين عوالم المجهول أو ما وراء المنظور . وقد يبدو ذلك متناقضا أول وهلة ، ولكنه لا يبدو كذلك فى حقيقته ، بعد استقراء يسير .

فالشباب المتشائم لا يكون كذلك لقلة ما عنده من الشعور واليقين والرجاء ؛ ولـكن لأنه على النقيض من ذلك موفور الحيوية فياض الشعور وطيد الإيمـان . وهو لا يتنكر للحياة لأنه لا يملك الحياة ؛ ولكن لأنه "مملوء اليدين بالحياة" زاخر الحس بأشواقها ومعانيها .

إنما هو يتنكر للضرورة ويطلب الحريه . ويستنكر الحرمان ويأنف أن يشعر به . ولا نكران ولا جناح عليه إذا أشاح عن الحياة كلما ذكر موانعها وكلما ذكر ماتدفع إليه هذه الموانع من الارتداد والنكوص .

وقد كان "أبو العلاء المعرى" الشاعر الحكيم ، متشائما شديد التبرم بالحياة والناس ، ساخطا على نفسه فى بعض الأحيان .

بنى الدهر ! مهلا إن ذممت فعالكم

فإنى بنفسى — لا محالة — أبدأ

ولكن أبا العلاء الذى يقول هذا ؛ هو الذى يقول أيضاً :

ورضت صعاب آمالى فكانت خيولا فى مراتعها شمسنه

ولم أعرض عن اللذات إلا لأن خيـارها عنى خنسنه

ألا تراه هنا كيف يبرر إعراضه عن اللذات ، وأنه إذن كان قمينا أن يحب الحياة ويمارس لذاذاتها على الرغم من برمه بها ! وهل تراه فى تشاؤمه قد نسى طبيعة الحياة الجياشة فى أعماقه ؟ كلا . . ولو أنه كان متشائما خالصا لكان أقرب إلى الشذوذ والغموب .

و" أرثر شوبنهاور "الفيلسوف الألمـانى الكبير ، كان زعيما ورائدا لمذهب التشاؤم فى عصره ، ولكنه كان ، كما يقول مريدوه ، عارفا بجوانب الحيـاة كما لا يعرفها أكثر أنصارها قربا منها ، وكان أقرب إلى الشعراء منه إلى الفلاسفة ، وفى مذهبه من التطلع والحيوية الفكرية ما ليس فى مذاهب كثير من المتفائلين ومحبى الحياة .

وليس أبو العلاء وشوبنهاور إلا مثلين من أمثلة كثيرة نطالعها فى تاريخ الشعراء والفلاسفة جميعا على اختلاف مذاهبهم وتفاوت نظراتهم فى الحياة .

* * *

ونعود إلى الشعور بالحرمان ، فنقول إنه يؤدى فى النفوس الضعيفة إلى الشعور بالحقارة ، ويسلب المرء ثقته بنفسه ، ويجره إلى الردة والتخلف ومعاودة الوساوس المبرحة والألم المريض ، كلما حز به أمر من أمور الحياة والاجتماع .

وهو فى النفس القوية الصادقة ، يتجه وجهة القوة والحياة ، فيأبى إلا أن يستعلن فى صورة الأنفة وقلة المبالاة ، والسخرية العنيفة ، وكل ذلك دليل الشعور بالنفس ، أو الشعور بالعظمة التى ترضى طبيعة الإنسان .

يقول " جيتى ": "كيف تراك تجدد نفسك بلا وناء ؟ إنك مستطيع ذلك ، مستطيعه بأن تجعل لنفسك نصيبا من السرور بالعظمة ، فإن كل عظيم لا يزال أبدا جديدا حارا مملوءا بالحياة ! " .

وإن جيتى الذى عاش كل لحظة من لحظاته جديدا حارا مملوءا بالحياة ، ليجعل الناس جميعا كذلك فى حياتهم وفى كل لحظة من لحظاتهم ، إذ يهديهم إلى "السرور بالعظمة" أى إلى مناقضة الأحزان وإنكار الشعور بالحرمان .

وكذلك تكون الحرية ، وكذلك تكون الحياة !

محمد محمود حمدان

ويقال الكرام قولا ! وما فى العصر

عصر إلا الشخوص والأسماء

" المعرى "